

الباب الثالث

الإنسان ونفسه

قديمًا قال فيلسوف الإغريق سقراط " اعرف نفسك " وجعل من هاتين الكلمتين جماع الحكمة ، ولعله فطن في ذلك الزمن السحيق إلى ما يقيم به الإنسان من عقبات في سبيل معرفته لنفسه ، فنظر إلى هذه المعرفة كأنها الغاية القصوى التي يصل إليها الحكيم ، وهذه الفكرة ولو أن سقراط هو الذي وضعها في هذه الصيغة الأنيقة المحكمة ، إلا أنها لم تخف على غيره من الناس ، فإن المشاهد لأحوال الناس الملاحظ لسلوكهم ، الدارس لأقوالهم وخصوصا ما جرى منها مجرى الأمثال ، لو اجد صدق هذه الحكمة يتردد دائما في أفواههم . وإنه ليردد في أفواه العوام كما يتردد في أقوال الحكماء ، وتجد صداه في قصص التاريخ كما تجده في مآسي التمثيل والرواية ، وفي حياة الإنسان في مختلف أدوارها مصداق لهذه الحكمة ، فالطفل ليس طفلا إلا في نظر الكبار ، والحاكم الطاغية ليس طاغية إلا في نظر المحكومين ، والبخيل عند نفسه حكيم مقتصد ، والمُسرف عند نفسه كريم مفضل ، والراهب رجل قد زهد مباهج الدنيا وعزف عن شهواتها .

ولن يجادل أحد في أنه كثيرا ما يخفي ذات نفسه عن الآخرين ، بل عن أقرب الأقربين إليه ، ويعتبر ذلك أمرا طبيعيا لا غرابة فيه ، ولكن الذي ينكره هو أنه يخفي ذات نفسه عن نفسه . هو أنه كما يخشى مواجهة الناس بما في خفيته فهو يحاول جاهدا أن يصور نفسه لنفسه في صورة ترضاها ، ويفسر أعماله وتصرفاته في ضوء لا يقضى العين ، ومنهم من يجاهد طول حياته في اقناع نفسه بالصورة التي يريد أن يراها فيها ، ويبذل في ذلك كثيرا من الجهد ، حتى يرى نفسه لا كما هي ، بل كما يريد أن تكون . وهو ينكرها إذ تتبدى في صورتها الحقيقية أحيانا ، فينسب ما توسوس به إلى الشيطان أو إلى مس من الجن أو يتجاهله تجاهلا تاما فلا يكاد يعرف بوجوده .

والزعة إلى تجاهل حقيقة النفس تظهر في كثير من تصرفاتنا العادية ، وتتناول أكثر ما تتناول مواضع الضعف الحقيقية من النفس ، فنغطيها ونموهها ونحول بينها وبين الظهور ، ونخفيها عن الأنظار وعن كل عين فاحصة . ونبالغ في التغطية والإخفاء والتمويه حتى نخدع أنفسنا عنها ، وسرعان ما نصدق ما موهنا به على الغير فتخفى هذه العيوب ومواطن الضعف عنا أنفسنا ، وكل منا يشبه في كثير من الأحيان ذلك المغفل الذي قيل إن الأطفال كانوا يعيشون به ويحرون وراءه في الطريق صائحين مهالين ، فأراد يوماً أن يتخلص منهم ، فاستدار لهم وقال : إنكم تخسرون كثيراً إذ تتبعوني ، أما تدرون أن فلانا قد أولم وليمة ودعا الصبية وغيرهم إليها ينالون ما يشاءون من المرق واللحم (والفت) ؟ وصدق الصبية واستداروا مسرعين نحو بيت الوليمة المزعومة . وما أن رأهم يحرون بهمهم ويصدقون قوله ، حتى هت وقال : لعل صادق فيما رويت لهم ولعل هناك وليمة ، وجرى وراءهم لعله ينال نصيبه في هذه الوليمة التي ابتكرها خياله كذلك نحن في حياتنا النفسية إذا بدأنا في تغطية عيوبنا عن أعين الناس ، فقد بدأنا في تغطيتها عن أنفسنا ، وكلما ظننا أننا نجحنا في التمويه ، كلما صدقنا أنفسنا مع المصدقين ، ورأينا أنفسنا في صورة غير الصورة . ولو أمعنا في التحليل لوجدنا أننا في واقع الأمر انما نرمي في النهاية إلى التمويه على أنفسنا ، وأننا نلتبس السبيل إلى ذلك عن طريق التمويه على الناس . انظر إلى المرأة التي تلتبس الجمال بالمساحيق تلون بها وجهها وتخرج بها على الناس ، فاذا خيل إليها أنهم يعجبون بها بدأت تعجب بنفسها وهي عن هذا الطريق تصل إلى الهدوء والطمأنينة ، فكأنها تريد أن تقنع نفسها بأن فيها جمالا وهي تصل إلى ذلك عن طريق اقناع نفسها بأن الناس يرونها كذلك فهي اذن كذلك . وكذلك نحن نقنع أنفسنا بالكمال عن طريق اقناعها بأن الناس يروننا كاملين .

وهذه الظاهرة تتناول النفس والمادة من حياة الإنسان ، فنحن نغطي أجسامنا بالثياب ونخفي "سوءاتنا" المادية وننتخلص من حبث الجسم ، ونخفيها عن الأنظار ، ولا نطبق التحديق فيه ، ونحدث عن هذا وذاك حديثا مضمر اغير صريح ، ولكنه مع إضماره يفصح عن تلمصنا من مواجهة الحقائق الجسمية والفسولوجية ، فنسمى هذا ضرورة ، ونسمى تلك عورة ، ونلتبس الأعاذير إذ

الاعتذار

تحدث عن هذه أو تلك ، ثم إننا نلبس للحالات لبوسا يخفي مظهرنا الضئيل أحيانا ، والقيبح أحيانا أخرى ، ويضفي على أشخاصنا "هبة" "وقارا" "وحكمة" . انظر الى البدائي الذي يخطط جسمه بخطوط زخرفية تكسبه مظهرا خيفيا ، أو يضع على ظهره جلد الأسد وعلى رأسه قرني ثور ، أو يغطي وجهه بقناع مفزع ، كل ذلك "ليظهر" بالمظهر الذي يؤثر في غيره فيكسبه الاحترام أو الرهبة ، ولا يلبث ما يبدو على الآخرين من احترامه أو رهبته أن ينعكس في نفسه فيرى فيها ما لم يكن يراه من قوة وجبروت ومنعه ، ولعله كان جبانا رعيديا منكشيا قبل ذلك . وليس هذا الأمر قاصرا على البدائيين بل إن من نسميهم بالمتمدنين ياجأون الى أمثال تلك المظاهر تماما ، فله جندي لباسه الخاص الذي يميزه ويكسب جسمه رشاقة وقوة وجبروتا ، وللساكن الذي يرهب النفوس ويوحى اليها فكرة القداسة والاحترام ، وللقاضي أو الحاكم بزمته التي توحى بالحكمة أو العدل أو الرهبة ولكل من هذه تأثير عكسي كما قلنا لا يلبث أن يندفع الشخص عن حقيقة نفسه ويوهمه بأن ما يظهره للناس إنما هو الحقيقة .

وفي الميدان النفسي الصنف نجد أن الانسان يحاول جاهدا أن يخفي عن الناس مظاهر "الحيوانية" أو "الأناية المطلقة" التي كثيرا ما يشعر بها . وليس هناك شخص لم يمر في حياته بتجارب أو حوادث يود أن ينساها أو يتناساها ، فهو يخفيها عن نفسه لأنها تنقص عليه حياته ، إذ تظهر له حيوانيته وأنايته وضعفه سافرة ، فإذا تعذر عليه أن ينساها فانه يبررها ويحاول أن يضفي عليها ثوبا يخفي حقيقتها ويغير صورتها .

قد يكفي كل ذلك لأن ندرك المعنى الذي تنطوي عليه حكمة سقراط ولكننا لن ندرك عمق هذا المعنى إلا إذا علمنا أن الإنسان إنما يخفي عليه من نفسه أكثر مما يعلم ، وأن ما يدركه من أحوالها ونزعاتها لا يكاد يقاس إلى ما لا يدركه ، وأن هناك قوة فعالة تحول بينه وبين معرفة النفس على حقيقتها مهما حاول جاهدا في ذلك .

وإن محاولة الإنسان أن يدرك حقيقة نفسه بالتأمل العادي لا تجدي ، لأن العقبات التي تقيمها هذه القوى الفعالة تقف سدا بينه وبين الجانب المجهول من نفسه .

ويخطر ببالنا أن نسأل أنفسنا ما الذى يدعو إلى كل هذه المقاومة والمشاادة؟ ولماذا تمتنع النفس على صاحبها كل هذا الامتناع؟ والإجابة على هذا السؤال تدخلنا فى صميم نظريات التحليل النفسى، فالجانب المجهول من النفس جانب موجود فعلا، كما أن باطن الأرض موجود حتى ولم نكن نراه.

لماذا إذن نجعل هذا الجانب ولماذا تحول العوائق بيننا وبين معرفته، فإذا كشف لنا أنكرناه ورأيناه غريبا عنا، وأقننا العقبات فى سبيل التعرف عليه؟

إذا أردنا أن نجيب على ذلك وجب أن نتبع ما نحمد من أنفسنا وما نذمه منها، ما نرضاه وما ننكره، مما هو معروف لنا، فنجد أن ذلك إنما يختلف باختلاف الأشخاص، باختلاف التربية والتعليم والبيئة التى نشأ فيها كل واحد منهم. ونجد أنه أيضا مرتبط ارتباطا وثيقا برأى الناس فىنا ورأينا فى أنفسنا. فما ينكره الشخص المتعلم المهذب من نفسه يراء الشخص الذى لم يتعلم ولم يهذب أسرا طبيعيا، وما تنكره بيئة خاصة أو مجتمع خاص إنما هو أمر عادى فى بيئة أخرى، فكان هناك مقاييس مشتقة من البيئة، يرنو إليها كل شخص ويقيس بها ما هو عليه فعلا وما يجب أن يكون عليه، فيرضى عن نفسه أو يفضى عليها بقدر اقترابها أو ابتعادها عن تلك المقاييس. والرضى عن النفس علامة السلام العقلى، والاطمئنان العاطفى، والحياة الهنيئة المستقرة. أما الغضب عليها، فهو نوع من الحرب الأهلية الداخلية، نوع من الثورة المكظومة، كلنا قد جربها فى وقت من الأوقات، ورأى شدة وقعها وعمق أثرها فى كياننا وفى سلامنا وهندوتنا. وهى حال لا يمكن أن يحتملها الإنسان طويلا، لأن استمرارها صنو الجنون، والمخرج من أمثال هذه الأزمة إنما يكون باستبعاد علة الغضب وتجاهلها تجاهلا قد يصل أحيانا إلى النسيان. أو بعبارة أخرى إن "النفس" تعمل على أن تخفى عن "صاحبها" (١) ما يفضيه أو تمويهه عليه حتى يعود السلام، فهى إذن تخفى ما لا يستطيع العقل احتمال من نزواتها. والعقل يحتمل أو لا يحتمل كما قلنا طبقا لمقاييس مشتقة من البيئة. فما تخفيه النفس وما تستبعده هو إذا لا يتسق مع المجتمع أو بعبارة أدق لا يتسق مع فكرة المرء عن المجتمع وعن المقاييس الخلقية والاجتماعية فيه.

(١) سنجيد التجديد السيكلوجى لهذه المفهومات فى الباب الخاص بصورة العقل

فاذا سامعنا بهذه النظرة سهل علينا أن ندرك طبيعة الجانب الذى نخفيه حتى عن أنفسنا، لا بد أنه جانب قد بلغ من خطورة شأنه أننا لا نحتمل حتى معرفته، لا نحتمل مواجهة العالم اذا كنا نعرف أنفسنا كما هي. وإننا كثيرا ما نجد صعوبة في مواجهة الناس اذا أتينا — حتى في الخفاء — ذنبا كبيرا، فنفسنا اذن تحتوي جانبا قد آمن في الخفاء لأنه قد آمن في مضادة الأخلاق والعرف السائدين في المجتمع .

وهنا نرى كيف تتلاقى الفكرتان الأساسيتان في التحليل النفسى ، فكرة اللا شعور وفكرة الغريزة الجنسية ، فاذا كانت النزعة الجنسية المطلقة بغير قيود ولا حدود هي النزعة التى تسود حياتنا النفسية فتجعل من كل طفل وكل شاب وكل رجل إباحيا الى أقصى الحدود، لا يقف دون إباحية عرف أو تقليد أو قانون، ولا تميز إباحيته بين الغريب والقريب مهما كانت درجة قرابته، بل تنصب أكثر ما تنصب على القريب بحكم قربه ، اذا كانت هذه النزعة موجودة فعلا، استطعنا أن نفهم لماذا ينكرها الإنسان من نفسه انكارا حاسما بأن يستبعدا استبعادا تاما، فيجهلها، ولا يكتفى بتجاهلها، لأن مجرد التجاهل إنما يكون لصغائر الأمور وتوافه المخالفات، وهذه ولا شك كبرى الكبائر، فلا عجب أن تتخلص النفس منها بهذا الإجراء الحاسم، وأن تقيم دونها الصعاب والعقبات وتحشد المقاومات حتى لا يدرك الشخص مداها ، فيجد نفسه وقد فقد اتزان النفس والاجتماعى . وهكذا نرى أن فكرتى اللا شعور والجنسية فكرتان متلازمتان لا غنى لإحديهما عن الأخرى، وهما كما قلنا الفكرتان الأساسيتان في التحليل النفسى .

وقد حاول الكثيرون من المشتغلين بعلم النفس أن يكتفوا بالأخذ بفكرة اللا شعور ، على أن يبنوا الجنسية بالصورة التى أوردها بها فرويد ، ولكن هذه المحاولة تبدو عقيمة في ضوء ما ذكرناه، لأن اللا شعور يصبح عديم القيمة في هذه الحالة ، يصبح ”تركيبيا“ لم تدع اليه الحاجة اذا استخدمنا لغة علماء الحياة ولا نعرف في وظائف الجسم أو العقل ما ينشأ بغير حاجة ملحة دافعة اليه .

ولعل في محاولة المحاولين أن يبنوا الجنسية من نظريات فرويد ما يؤيد ما ذهب اليه من أن الإنسان في محاولة دائمة لاستبعاد هذه النزعة من شعوره وأفكاره إذا بدت له بالرغم منه .

وقد قلنا إن هناك قوة فعالة تحول دون ظهور النزعة المخفية بصورتها الحقيقية.

وحول هذه الموضوعات الثلاثة تدور كل نظريات التحليل النفسي. فالإنسان يولد وعنده هذه النزعة التي يضادها المجتمع والخلق، فلا يلبث أن يجد أنه لن يستطيع أن يحتفظ بها فيخفيها في أعماق نفسه أي في "اللاشعور"، وبما أنها نزعة حيوية أساسية لأن استمرار النوع وهو أهم وظائف الكائن الحي متوقف عليها، فإنها لا تخضع لهذا الابعاد بل تضغط وتلج في سبيل الظهور، فيضطر إلى أن يقيم دونها العقبات والمقاومات. ولكن ذلك لا يبأسها، فتلتبس شتى الحيل لتظهر بصور متعسفة متخفية، توفر على الإنسان صدمة ظهورها بمظهرها الحقيقي، وتتيح في التخفي حيناً وتفشل حيناً، وتتأثر حياة الإنسان النفسية بهذا النضال الدائم بين القوى فيتحدد سلوكه بالصورة الدائمة والمؤقتة له، وتتشأ في النفس وظائف مختلفة يعتبر نشوء كل منها استجابة لحاجة جديدة من حاجات هذا الموقف النفسي المركب^(١).

(١) سترى فيما بعد أن نشوء الأنا "Ego"، الأنا العليا "Super Ego"، إنما هو استجابة للتصادم الطبيعي بين الهى "Id" وبين العالم الخارجى